الحياة والعبقرية

في ضوء فلسفة المذهب الحيوي

بقلم علي أدهم

الحياة في رأي القائلين بالمذهب الحيوي دفع غريزي وقوة ينميها الكفاح ويزودها ببواعث التطور ويهيء لها اسباب التدرج في الكمال ، وقانون التقدم الحيوي دائب لا تفتر له همة ولا يعروه وهن .وهو في النطاق العضوي الطبيعي يبدو في صورة التناحر على البقاء المفروض على الانسان فرضاً في مراحل تقدمه الباكرة لعدم كفاية الغذاء وصعوبة الحصول على وسائل العيش ولكن عندما ذلل الانسان هذه العقبة وجاوز تلك المرحلة لم تبطل اسباب الكفاح وانما انتقلت الى ميادين أخرى وبدت في ازياء جديدة ، فالجهود الذي يبذله الفنان في خلق آيات الفن وطرف الأدب أو الذي يقوم به العالم في تمحيص البحوث واكتناه اسرار الطبيعة واستكشاف قوانينها هو بمنزلة المعارك الحامية التي يثيرها المتوحشون والحيوانات لينتزعوا من الطبيعة أسباب بقائهم ومقومات كيانهم ، وجهد الفنان يعين على صقل المشاعر وتهذيب الاحساس ويزيدنا تقديراً للجمال كما أن جهد العالم يزيد تراثنا العلمي ويوطد الحضارة ويمكّن للانسان

فالحياة اذن قائمة على الدافعة والجهد والمحاولة ولو انها جردت من مهماز الحاجة لران عليها الخمول وتوقف تقدمها وأصابها الجمود والاضمحلال سواء اكانت هذه الحاجة عضوية كالحاجة الى الطعام وما اليها أو فكرية كالحاجة الى المعرفة أو فنية كالحاجة الى الخلق والابداع

والحياة لكي تستجد دوافعها وتستثير بواعث الكفاح والمغالبة تحد نفسها وتطامن من سيطرتها ، لأنه لو زوّد انسان بكل قوى الحياة واستطاع قراءة الافكار واستطلاع الغيوب لضعفت الدوافع التي تحدوه على الكفاح والصراع الذي ينشأ من شعوره بالحاجة وضيق المدى ولظلت الحياة على وتيرة واحدة وفي مستوى لاتتجاوزه ولا تعلو عليه ، ومن ثمّ فان تجريد الفرد من كامل قوى الحياة يعد من قبيل اخذه باساليب النظام والتهذيب ، والنظام والتحديد هما كما قال نيتشه اول شرائط الاستكمال ، ومما يستدعي الملاحظة ان قوى الحياة الكامنة لاتبدو للفرد في صورة باهرة قوية الا عند ما يكون وجوده الفردي مشرفاً على الزوال ، فالغريق

الذي غمرتهُ الامواج وأوشك ان يطويهُ اليمّ تمر بهِ في لحظة واحدة حياته جميعها في تفاصيلها الدقيقة وصورها المختلفة ، والجندي الجريح الذي يعاني سكرات الموت قد يستطيع نقل شعوره الى من يهمهم امره ويشجيهم مصرعه وكأنما الحياة في تلك اللحظات وهي تهم بترك هذا الوعاء المحدود وتعود الى المجرى الاصلي ترفع النقاب وتزيل الحواجز التي تستر عنا مواهبها الكامنة في عالم اللاوعي

وانصار المذهب الحيوي لايعللون سبب امتزاج الحياة بالمادة تعليلاً شافياً ولا يبدون فيه رأياً قاطعاً ، وفي رأيهم انهُ ربما كان سبب هذا الامتزاج ان المادة كانت موجودة وكانت الحياة تبحث عنها لتخفف من كثافتها وتمحي موانعها وتخضعها لاحكامها ، وربما كان سببه كذلك ان المادة بطبيعتها عقبة في سبيل الحياة وان الحياة تمر خلالها لتتجاوزها وتعلو عليها لان غرض الحياة هو التدرج في الكمال واكتساب صفات اسمى ولا يتم هذا الرقي الاّ اذا فرضت الحياة على نفسها حصر قواها والحد من حريتها ، ومن طبيعة هذا الحصر انهُ يستلزم ان يكون هناك « أفراد » ولا يمكن ان تتم الفردية الاّ على هذا النمط ، وهذا الشعور بانحصار القوى وضيق المدى هو الذي يدفع الفرد ويزخر قواه ، فالمادة في منزلة الحافز والدافع معاً فهي تفصل الانسان عن نبع الحياة الاصلي وتحده لان الحياة المحصورة بها والمحدودة بحدودها تضطره الى شحذ قواه وحفز عزيمته لكي يصقلها وينميها ، والفرد هو تيار من الحياة منفصل عن مجراها الاصلي انفصالاً موقتاً وهو مع ذلك يستمد منهُ القوة والنشاط ، فاذا كانت القوة التي يريد بها الانسان ويفكر ويعمل هي نفسها قوة الحياة فكيف يتيسر ان يخالف « ارادة » الحياة ويتمرد على أحكامها ولا يعمل على تحقيق اغراضها ؟

ولكن الحقيقة هي أننا اذا لم نتمكن من التغلب على ارادة الحياة وعرقلة مساعيها فانهُ من الواضح أننا نستطيع ان نتردد في تلبية مطالبها ونتريّث في تحقيق رغباتها بل في وسعنا ان نعوق أغراضها ونعترض تقدمها ، وبعض الافراد أقدر على النهوض بمطالب الحياة من البعض الآخر ، والعبقري والأبله كلاهما يعبر عن الدافع الحيوي ولكن من الصعب ان نتصور أنهما يخدمان الحياة بطريقة متماثلة ويعملان على تحقيق أغراضها بنصيب متساو ، وقلّ بين الناس العاديين من يستطيع ان يقوم في تقدم الحياة وتطورها بنصيب يعادل نصيب أمثال افلاطون وشكسبير وتولستوي ، والرجل العادي يسير في الطرق المسلوكة ولا يفكر في استحداث شيء ولا يعنيه مستقبل الانسانية ومصير الاجيال القادمة ، واكثر الناس يعبر عن قوة من قوى الحياة بطيئة التغير وكلما تقدمت به السن ازداد محافظةً واستعصاء على التقدم

والحياة تلتمس الذرائع لبلوغ غايتها وتبذل جهدها في استصلاح وسائلها ولكن كل

الادوات التي أوجدتها لاتلائم اغراضها كل الملاءمة . وذلك لأن قوة الحياة محدودة وهي تعمل وتؤثر في المادة وتبذل جهوداً ضخماً لتميط عنها الخمول والثقل والبلادة وهي تؤدي خير ما تستطيعه بالوسائل الميسورة لها ، وفضلاً عن ذلك فهي تسلك طريقة التجربة وليست كل الوسائل التي تبتكرها ملائمة لأغراضها المتناة وهي في كل مرحلة من مراحل التقدم تلغي بعض الوسائل التي اصبحت غير صالحة وتستجد وسائل غيرها أقوم بتحقيق ماتبغيه من الاغراض وهي لاتألو جهداً في العكوف على شتى التجارب والمحاولات لاختبار الوسائل والآلات التي تسمو بها الى مرتقيات أسمى وأبعد شأواً ولكنها قد يخطئها التوفيق في بعض هذه المحاولات ويصيبها الاخفاق .

ويمكننا ان نستنبط من ذلك ان سبب اخفاق الفرد لايعزى في جميع الحالات الى ان قوة الحياة فيه محدودة ، وانما سببه الى حد ما هو تصرفه الحر الذي تقع على عاتقه مسؤوليته ومن الصعب ان ينكر ان الفرد وقد خلق لاداء غرض من أغراض الحياة في وسعه ان يؤديه او ان يعوق اداءه وينشد أغراضه الخاصة بدلاً من متابعة أغراض الحياة العامة وهذا يدل على ان للانسان نصيباً كبيراً من حرية الارادة

ولكن كيف نوفق بين حرية الارادة وتصورنا الفرد على انه مجرى من ينبوع الحياة وانه بناء على ذلك الاعتبار يلزم أن يكون سيره وفقاً للنبع الاصلي الذي انبعث منه فهو مثل قطعة من الخشب يحملها التيار المتدفق ، والجواب على ذلك انه لولا المادة لكان هذا نصيب الفرد ولما كان ثمة معدى عن الانقياد لدوافع الحياة ولكن المادة تعترض سير الحياة وتضطر نهرها الجاري الى أن ينكسر الى نهيرات عدة تستمد نشاطها من المجرى الاصلي ولكنها تسلك الاتجاه الملائم لمواقع الصخور المعترضة ومن شأن هذه الصخور أن ترغم هذه النهيرات على التعرج في سيرها ومن ثم تتخلص الى حد ما من سيطرة النهر الاصلي

وكذلك يمكننا ان تصور ان المقدار من الحياة الذي يتصل بالمادة ليكوّن الفرد يستطيع بفضل المادة المتداخلة بينه وبين الينبوع الاصلي للحياة ان يتبع طريقاً خاصاً به ، والمادة مع عجزها عن مدافعة الحياة التي تتخذها مطية لبلوغ غرضها تتقاضى ثمن ذلك العجز والخضوع للحياة ، وذلك الثمن هو أن هذا الجزء من قوة الحياة عندما يحل بالمادة ويسمى « فرداً » . يمنح حرية الاختيار ، وبفضل هذه الحرية يستطيع اذا شاء ان يسلك طريقاً غير الطريق الذي تحاول فرضه عليه ارادة الحياة

وأعظم الحوادث في حياتنا خارجة عن ارادتنا ، فنحن نولد سواء اردنا ذلك او لم نرده ونجيء الى دنيا لم نسع اليها ولا علم لنا بها ومن والدين لا نختارهما ، ونحب بدافع من نفسنا

لا سيطرة لنا عليه واخيراً يدركنا الموت على غير اختيار منا وبرغم انوفنا وانما عندما ترى الحياة انها في غير حاجة الينا

وقوة الحياة لا تشفق على مخلوقاتها ولا تبالي بسعادتهم وشقائهم ما داموا يحققون اغراضها ، وهي لا تتورع عن خداعهم فتلوّح لهم بالسعادة وتغريهم بالاماني المعسولة والوعود المغرية ونحن نحقق اغراضها لا لأننا نريد ذلك وانما لان شيئاً داخل نفوسنا تسمو ارادته على ارادتنا ويملينا على امرنا يريدها

ولكن هناك مسائل صغيرة في الحياة لنا فيها حرية الاختيار ونحن في حدودها نستطيع ان نحقق غرض الحياة او نعوقه ولذا اوجدت الحياة حلقة متصلة من الوسائل التي تشجعنا على التوجه الى الناحية التي يتجه اليها تقدم الحياة ، ومن اهم تلك الوسائل خلق العظماء والعبقريين ، فلولا كبار المفكرين وعظماء المصلحين ونوابغ الفنانين لظلت الانسانية في تخلف وجمود

والحياة لكي تقاوم الرغبة الطبيعية الكامنة في نفوس الناس في ايثار الجمود والكسل والمحافظة ومحاولة استبقاء صنوف الفكر وألوان الفن والادب بعيدة عن حركة التجدد الذي تستلزمه دوافع التقدم — اقول ان الحياة لمقاومة ذلك توجد العبقري لكي ينهض بالعبء الذي يعجز عن القيام به اكثر الناس ، والعبقري بطبيعته يتحدى طرق الفكر المألوفة وقواعد السلوك المرعية ويعيب آدابها ويزيفها ، والناس تكره من يعيب معتقداتها ويسفه تقاليدها ولذا تضطهد العبقري وقد تصليه اذا كان داعية اخلاقياً وقد تهمله وتغمطه حقه اذا كان فناناً ، ولكن الجماعة البشرية رغم ذلك تتجه الى الناحية التي أشار اليها وبذلك يعنو لآرائه ابناء الذين اضطهدوه ، ورقي الانسان الادبي والفني يتم بوثبات معادلة لما يسمى في علم الحياة بالوثبات المباغتة او التحولات الفجائية ، وظهور العبقري يدل على الاتجاه الجديد وكأنما تتخذه الحياة لساناً لرسالتها التي تريد تبليغها الى الافراد وهذا سبب وصفنا للشعراء والفنانين العظماء والانبياء والمصلحين بأنهم ملهمون وهم يشعرون انهم مسخرون لاغراض الحياة مسوقون بدوافعها وهم يستلهمون هذه الدوافع ولا يحجمون عن مواجهة الاخطار ويصرون على القيام برسالتهم رغم كل ما يقام في طريقهم من عقبات وما ينصب لهم من شباك

وتصورنا العبقرية بهذه الصورة يمكننا من أن ندرك الدور الهام الذي لعبه الادب والفن في قصة التاريخ ورواية التطور لان رسالة العبقري تتم بالكلمة المقولة او بالكلمة المسطورة . وقد أخذ الادب في مراحله الاولى شكل الامثال الادبية وصورة المواعظ والنصائح ولم تكن هناك وسائل تمكن العبقري من الولوج الى عقول الشعب الا بهذه الطريقة لان الوصول الى عقل الجمهور في تلك الازمان النائية لم يكن سهلاً ولا ميسوراً ولذا كان الرقي في تلك الفترة

يتم عن طريق الدين ورجاله ولذا نرى منذ فجر التاريخ الانبياء والرسل والواعظين والمصلحين يعرون بالناس ويعظونهم ليتركوا سبل الشر ويحيوا حياة فاضلة . ومن المعروف أن جوهر التعاليم والآداب في جميع الاديان واحد وهو احلال الحب محل الكراهة والبغضاء والتسامح مكان الانتقام وتحبيذ العفو عن الاعداء والعطف على الضعفاء وقد حاول الأنبياء بذلك تطهير القلوب وتصفية النفوس

والمسيح وبوذا يوصيان بتوسيع نطاق الاسرة حتى تشمل الانسانية برمتها ويمقتان التحزب والتباغض ويحاولان مقابلة الشر بالخير ويوصيان بكبح الاهواء وقهر الشهوات

وبارتقاء فن الكتابة واختراع الطباعة حلت الكلمة المكتوبة مكان الكلمة المقولة ولكن غايتها لا تزال تعليمية وقد كانت الدراما في اول ظهورها متصلة بالدين وروايات كبار المؤلفين في الدراما من اليونانيين أوحتها روح دينية عميقة وهي تؤكد عدم استقرار حياة الانسان وعجزه حيال سطوة الارباب ، وفي العصور الوسطى كانت أكثر الروايات قائمة على الاغراض الاخلاقية ولا نزال اثر ذلك بادياً في روايات ابسن وبرنارد شو اللذين يهاجمان سخافات العصر وحماقاته

وكبار الفنانين وأعلام الشعراء والكتاب هم معلمو الانسانية الذين ينمون مشاعرها ويهذبون ذوقها وينشطون الفكر ويوسعون آفاق النفس ، وتعاليمهم تزيدنا احساساً بالجمال وادراكاً لمعاني الطبيعة ، واحتكاك عقولنا بعقولهم يزيدنا قوة ويؤثر فيما يصدر عنا من الاعمال والاقوال ويسمو بنوازعنا وطموحنا ، ولا نزاع في ان للشعر الغنائي اثراً كبيراً في تهذيب عاطفة الحب والسمو بالميول الجنسية ، وللشعراء فضل كبير في توضيح فكرة أن الحب يعلمنا التضحية ونكران الذات ويستخرج القوى الكامنة في النفس ويبصرنا جمال الطبيعة

ولكن مجهود العبقري يقابل بالانكار والجحود لانهُ يسبق عصره وينقد مقاييسه ويثير في نفوس معاصريه غريزة المحافظة ، ولبعض الناس مصالح خاصة مرتبطة ببقاء الفكر السائد والاحوال الراهنة ولذا يبذلون جهدهم في الدفاع عنها والمحافظة على معالمها والعبقري هو بشير المستقبل ورائده وموجد آدابه ، وقد حوكم سقراط وبرونو وجاليليو وأمثالهم لان افكارهم كانت سابقة لعصرهم ولكن العالم يكرمهم الآن ، والافكار الجديدة تصبح على مر الايام قديمة ولكن الناس تظل متمسكة بها بحكم غريزة المحافظة ومألوف العادة حتى يجيء دافع جديد وهكذا يظل الفكر الانساني متنقلاً بوثبات مستمرة والعبقري هو الذي يقوم بنقل الفكر من مرحلة الى مرحلة جديدة ومن مستوى الى مستوى أرفع